

اسماعیل مظهر

۱۸۹۱ - ۱۹۶۲

اسماعيل مظهر هو علم كبير من أعلام الفكر في تاريخ مصر الحديث. وإذ أستحضر اليوم اسمه وتراثه العظيم فلأن مصر في المرحلة الجديدة التي تجتازها هي بحاجة إلى استنكار من أسهم في نهضتها القديمة لكي يكون تراثهم عاملاً مساعداً لنهضتها الجديدة. فاسماعيل مظهر كان بفكره الحر مدرسة في الديمقراطية وفي الدفاع عن حرية الفكر، الحرية التي هي حق طبيعي للأفراد والجماعات. وقد عبّرت عن مدرسة اسماعيل مظهر هذه مواقفه في المجالات التي شارك في تحريرها وفي المجالات التي أصدرها وفي الكتب التي امتلأت بها مكتبات مصر والعالم العربي. كما عبّر عنها نشاطه السياسي دفاعاً عن العمال والفلاحين من خلال الحزب الذي أنشأه في مطلع شبابه باسم "حزب الفلاح"، فضلاً عن مشاركته في العمل السياسي الديمقراطي منذ وقت مبكر.

ولد اسماعيل مظهر في عام ١٨٩١ في القاهرة. ويقول ابنه جلال عن لسان أبيه في كتاب سيرته "تاريخ الشباب" إنه هجين في أصوله من أمم شتى. فجدّه لأمه هو محمد مظهر باشا الذي هو من أب شركسي ومن أم صعيدية من منطقة الجيزة. وجدّه لأبيه هو اسماعيل باشا محمد من الاسكندرية. وترجع جذوره إلى الأندلس التي هاجر أجداده منها إلى مصر في أعقاب انهيار حكم العرب فيها.

التحق اسماعيل بالمدرسة الناصرية الابتدائية، ثم بالمدرسة الخديوية الثانوية في القاهرة. أصدر في عام ١٩٠٧، وهو طالب في المرحلة الثانوية في السادسة عشرة من عمره، جريدة أسبوعية سياسية باسم "الشعب". أصدر منها عدة أعداد. بدأ نشاطه السياسي بالانضمام إلى "الحزب الوطني" الذي كان معجباً برئيسه مصطفى كامل وبمواقفه السياسية الجريئة. وشارك في تحرير صحيفتيّ الحزب "اللواء" و"الأفكار". وكان في أفكاره أكثر تأثراً بأفكار لطفي السيد. وقد برز ذلك في مقالاته في الصحيفتين الأفتي الذكر.

كان من أوائل ما قام به، تأكيداً لنزعه العقلانية، ترجمة الجزء الأول من كتاب داروين "أصل الأنواع". وأثارت تلك الترجمة الضجة ذاتها التي أثارها ترجمة ونشر كتاب داروين من قبل شبلي الشميل. وكان ذلك في عام ١٩١٨. وكان في ذلك الحين قد بلغ اسماعيل مرحلة النضج التي تكوّنت فيها شخصيته كصاحب فكر وموقف تميّز بالحرية والعقلانية والجرأة في التعبير عن أفكاره وعن مواقفه.

في عام ١٩١٩ أشرف اسماعيل مظهر على إصدار جريدة "المنير" لمدة ستة أشهر، انتقل بعدها إلى الكتابة في مجلة "المقتطف" التي كان يصدرها صديقه يعقوب صروف. وفي عام ١٩٤٥ كلف برئاسة تحرير تلك المجلة. وتعتبر هذه المرحلة من حياته الذروة في إبداعه في مجال الفكر والأدب والسياسة.

يقول وديع فلسطين في وصف دور اسماعيل مظهر في "المقتطف": "في "المقتطف" ابتدع اسماعيل مظهر مبتدعات جديدة غير معهودة في هذه المجلة ذات التقاليد الراسخات. فلأول مرة في عمر هذه المجلة صورت افتتاحيتها تقرّيباً لكتاب رأى فيه اسماعيل مظهر حدثاً فكرياً يستحق الحفاوة والاحتفال. فعقد بقلمه الجريء مقالاً عن كتاب "هذه هي الأغلال" للعلامة الحجازي عبد الله القصيمي ترددت أصدائه في المشارق والمغرب وانهالت عليه أسباب التجريح والتقريع لأنه ناصر حرية الفكر وجاهر بحق العقل في أن يفكر في انطلاق. وفي "المقتطف" ابتدع اسماعيل مظهر لواحق شهرية. وهي كتب كاملة تتناول شؤون العلم والأدب ويكتبها خبراء فقهيون وتطالع القارئ كذيل شهري "للمقتطف"، فصار من حظ القارئ أن يقرأ مجلة وكتاباً في آن. وفي "المقتطف" شنّ اسماعيل مظهر حملة شعواء على التسلل الصهيوني إلى ميادين الفكر. وكانت حملة عنيفة جارحة خرجت بالمجلة من تقاليد الطويلة. وصارت مجلة تقنم كل سائك من الموضوعات بإقدام وإصرار وجرأة".

في عام ١٩٢٧ أصدر اسماعيل مظهر مجلة "العصور". وقد شكلت المجلة بصورها ظاهرة جديدة في الفكر الحر. ويقول ابنه جلال في شرح الأسباب التي قادت والده لإصدار مجلة "العصور": "أعتقد أنه أراد أن يرد من على صفحاتها على الذين كانوا يتحدثون عن التجديد. وكان التجديد في نظره ورأيه هو تجديد الفكر ذاته والثورة العارمة على كل العادات والتقاليد والأفكار القديمة والتي لم تعد تناسب العصر.. بل كانت تقف حجر عثرة في سبيل تطورنا لاسترجاع مكانتنا الحقيقية في مجتمع الدول الراقية. ومن هنا أعتقد أن عنفه في معالجة كثير من الأمور كان له ما يبرره في حدود هذا الرأي. وكان شعاره في "العصور": "حرر فكري من التقاليد". أما أسباب توقفها فيرجع إلى أن اسماعيل مظهر لم يكن تاجراً في يوم من الأيام كغيره من أصحاب الصحف الثقافية منها أيضاً. فأخفق في إدارة شؤونها المالية رغم نجاحه الباهر المشهود في جميع أنحاء العالم العربي في إدارة شؤونها الفكرية. ولقد كتب الأستاذ اسماعيل أدهم تقيماً لدور مجلة "العصور" باللغة الألمانية نشره في صحيفة ألمانية، وترجمته إلى العربية مجلة "الحديث" السورية لصاحبها سامي الكيالي سنة ١٩٣٦".

ويضيف جلال في الحديث عن معارك أبيه الفكرية "لا شك أن مجلة "العصور" هي أكبر معاركه الفكرية والأدبية. هذا طبعاً بالإضافة إلى معارك كثيرة كان يخوضها بمنتهى العنف - وأولها حول نظرية داروين - وعلى الأخص إذا كانت تتعلق بالوطن ذاته.

ويؤكد رفعت سعيد على أهمية مجلة "العصور" في مقال له في جريدة "الأهالي" مكرّس لاسماعيل مظهر. ويستشهد رفعت السعيد بمقال لمظهر كان قد صدر في مجلة "المقتطف" يمهّد فيه لإصدار مجلة "العصور". يقول مظهر في هذا المقال: "إن اهتمام المفكرين العرب والمسلمين بالموضوعات المثالية المجردة بدلاً من الاهتمام بقضايا الحياة الواقعية جعل النمط الغيبي لا الوضعي هو السائد في تفكيرهم الماضي والحاضر". وأضاف: "إنني أتوقع، وعسى أن

يكون ذلك قريباً، أن الخطوة التي خطوناها في سبيل الخروج من ظلمات الأسلوب الغيبي إلى وضع الأسلوب اليقيني سوف تقودنا سعياً إلى ميدان يتصادم فيه الأسلوبان تصادماً يثير في جو الفكر عجاجة ينكشف غبارها عن الأسلوب الغيبي وقد تحطمت جوانبه وانكدت قوائمه. وتترك الأسلوب اليقيني قائماً بهامة الجبار القوي الأصلاب مشرفاً على الشرق وقد هبّ من رقاد ليسيير في الدروب التي سهلت سبيله للأنام نواميس النشوء والارتقاء. لكن ورغم جهود المفكرين العرب المعاصرين للانعتاق من قيود التفكير التقليدي فإن آراءهم التحديثية لم تتبلور في حركة وضعية".

ويقتطع رفعت السعيد من افتتاحية العدد الأول من "العصور" الفقرات التالية تأكيداً منه على أهمية هذه المجلة وأهمية دور اسماعيل مظهر فيها. يبدأ مظهر مقاله الإفتتاحي بآية من القرآن الكريم "عسى ربحكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض وينظر كيف تعملون". ويتابع: "إن الإقدام على تحرير مجلة تجمع إلى العناية بالأدب والعلم والفلسفة والإشتغال بمشكلات السياسة العامة والخاصة أمر يجعل مسؤولية العمل خطيرة". ويتابع فيقول عن أساليب الحكم: "فكيف بك إذا احتكمت في هذه الشعوب نزعات فرد مطلق الإرادة، حر التصرف في الرقاب والأموال والأنفس والأغراض؟".

إلا أن أهم ما بدأ به اسماعيل حياته السياسية هو تأسيسه في عام ١٩٢٩ حزب "الفلاح" الذي يضم في صفوفه الفلاحين والعمال. وحدد أغراض الحزب على النحو التالي: "١(أ) أغراض حزب العمال والفلاحين: ١- الاستقلال التام لمصر والسودان. وأن تكون قناة السويس مصرية. ٢- القضاء على الاستعمار البريطاني، وكافة النزعات الاستعمارية في جميع بلدان العالم. ٣- تحرير الطبقات العاملة في مصر من عمال وفلاحين مع تقليل الفوارق بين الطبقات الاجتماعية، وجعل هذه الفوارق قائمة على أساس الاجتهاد والمنفعة للمجتمع. ٤- بث الأفكار الديمقراطية وروح المساواة العامة في الشعب. (ب) المبادئ: ١- التكاتف مع الأمم المستعبدة

ولا سيما الأمم الشرقية والعربية على محاربة الاستعمار. ٢- عدم التعاون مع المحتلين إطلاقاً ومقاطعة التجارة البريطانية. ٣- نشر الدعوة في مصر والخارج لإظهار حقيقة نيات السياسة الانكليزية وأعمالها السيئة في مصر وغيرها. ٤- إلغاء الامتيازات الأجنبية بدون قيد ولا شرط. ٥- سنّ القوانين لتحديد مهاجرة الأجانب إلى مصر. ٦- سنّ قوانين جمركية لحماية المنتجات الوطنية الأساسية من زراعية وصناعية، وحث الشعب والحكومة على تفضيل المنتجات الوطنية. ٧- فرض ضرائب جمركية خاصة على الكماليات ومواد الزخرف والرفاهية. ٨- القضاء على حركة التبذير السارية في أكثر مرافق الحكومة. ٩- نشر الثقافة ومحاربة الأمية وفتح مدارس ليلية للطبقات العاملة. ١٠- قيام الحكومة بإصلاح أراضيها البور وتوزيعها على صغار المزارعين. ١١- حلّ الأوقاف الأهلية. ١٢- فرض ضرائب متدرجة على الدخل والميراث. ١٣- حماية العمال والفلاحين بقوانين تحدد أجور وساعات العمل وتحتم على أصحاب المزارع والمصانع بناء منازل صحية ومريحة للفلاحين والعمال. ١٤- حماية الأولاد بمنع تشغيل الذين دون الرابعة عشرة. ١٥- تحسين الحالة الصحية ومجانية المعالجة للطبقات العاملة الأجيبة. ١٦- جعل التعليم مجانياً بجميع درجاته. ١٧- حق العامل والفلاح في التعويض عن الاستغناء عنه وحقه في الإعانة عند البطالة مع التأمين ضد الإصابة والشيخوخة. ١٨- سنّ قانون التحكيم بين أصحاب الأقطان والمؤجرين إبان اشتداد الأزمات الاقتصادية أو حدوث ظروف قاهرة. ١٩- تنظيم نقابات واتحادات طائفية ومركزية للعمال والفلاحين في جميع الصناعات والدوائر الإقليمية مع سنّ تشريع يعترف بشخصية هذه النقابات واتحادها العام الذي تنتخبه هذه النقابات. ٢٠- زيادة اختصاص البلديات ومجالس المديرية مع تعديل قانون انتخابها وإلغاء شروط النصاب العقاري. ٢١- تقوية الحركة التعاونية. ٢٢- قصر مدة الخدمة العسكرية على ستة أشهر مع تشجيع الحركات الرياضية والكشافة. ٢٣-

المساواة بين المرأة والرجل في الحقوق السياسية والاجتماعية. ٢٤- محاربة الأفيون والمخدرات
والخمور المركزة. ٢٥- إلغاء الرتب والنياشين. ٢٦- منع تعدد الزوجات. ٢٧- تحريم
الملكية الزراعية. ٢٨- تحريم ملكية الأراضي الزراعية على الأجانب. ٢٩- القيام بنشر
الدعوة لإظهار بشاعة الحروب الاستعمارية وغرس روح الإخاء الشعبي بين الأمم. ٣٠- عدم
السماح بإنشاء شركات أجنبية إلا في ظروف ضيقة. وفي هذه الحالة يحتفظ للمصريين بنصف
أسهمها". (استقيت هذه المعلومات من كتاب علاء الدين وحيد "اسماعيل مظهر- رجل الفكر
وعاشق الحرية".

في عام ١٩٣٠ شارك في تأسيس "المجمع المصري العلمي للثقافة العالمية" مع عدد من
أصدقائه هم علي أدهم وأحمد زكي وسلامة موسى وآخرون. وكان له الدور الأول في جمع
كتابات لطفي السيد في كتاب. وكلف في عام ١٩٥٩ برئاسة تحرير "الموسوعة العربية
المسيرة". وفي عام ١٩٦١ اختير عضواً في مجمع اللغة العربية. وتوفي في القاهرة في عام
١٩٦٢ تاركاً للمكتبة العربية عدداً من الكتب أشير إلى أهمها وهي: "الحضارة اليونانية"
و"معضلات المدينة الحديثة" و"الدين والعلم" و"حياة الروح في ضوء العلم" و"نزعة الفكر الأوروبي
في القرن التاسع عشر" و"تهضة فرنسا في القرن التاسع عشر" و"غاندي" و"تاريخ الفكر العربي
في نشوئه وارتقائه" و"المرأة في عصر الديمقراطية" و"قاموس النهضة" و"الاسلام والشيوعية"
وكتاب سيرته "تاريخ الشباب".

تلك هي شذرات من سيرة اسماعيل مظهر. إلا أن هذه الخلاصة المكثفة لسيرته لا تغني
عن الدخول في عوالمه في جوانبها المتعددة. وقد لفت انتباهي وأنا أقرأ تراث اسماعيل مظهر
اهتمامه الاستثنائي بالمرأة وبدورها في التاريخ القديم والحديث لا سيما في بلداننا. يقول في
مطالع كتابه المهم "المرأة في عصر الديمقراطية" المرأة عامل من أعظم العوامل المؤثرة في بناء

المدنية الحديثة. ولم تكن المرأة في العصور القديمة أقل أثراً منها في العصور المتأخرة. فالقبائل البدائية، وخاصة تلك التي اتخذت عادات البدو في الارتحال من مكان إلى مكان، والجماعات التي عاشت بالصيد، والعشائر التي اتخذت من سلاحها وعضلاتها وسيلة للعيش والحياة والضرب في مناكب الأرض، كل هؤلاء يدينون للمرأة الكثير من أمور دنياهم. شاركت المرأة الرجل منذ أقدم العصور في العمل. وأخذت بضع في كل ما يتعلق بالحياة القبلية وحياة الأسرة. وكانت من العوامل الأولية في انتشار جماعات الإنسان في بقاع من الأرض. ولولا فضلها في العمل، وتدبيرها شؤون الأسرة، لتعذر على الرجل وحده أن يدبّ فيها أو يكشف عنها... لم يصلنا من تاريخ المرأة الاجتماعي في العصر المصري القديم شيئاً يتيح لنا البحث في شؤونها بحيث نحدد مكانتها في ذلك المجتمع تحديداً يرضي التاريخ الصحيح. لكن يكفي أن نعرف أنها بلغت من المكانة في ذلك المجتمع ما لم نر له مثيلاً في الحضارتين اليونانية والرومانية. فقد بلغت في مصر القديمة مرتبة الملك، وكفى بذلك دليلاً على أنها بلغت في مصر، وفي فجر التاريخ البشري، منزلة السلطة العليا في دولة استبدادية لا أثر للديمقراطية فيها... إن الكلام في حقوق المرأة حديث جديد في المدنية. فبعد أن سقطت المرأة عن عرشها المتواضع الذي تربعت من فوقه في العصر الروماني، غشت عليها غشاوة القرون الوسطى، فقبعت راضية حتى أدركتها العصور الحديثة، فهبت من غفوتها تطالب بحقوقها السياسية، تلك الحقوق التي ساوت فيها الرجل مساواة تامة. أما بداية جهادها في سبيل ذلك فيرجع إلى ما قبيل الثورة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر، إذ بدأت تحل مشكلتها العالمية مكاناً في آداب الأمم الغربية".

ويقول مظهر في مقال له عن الاشتراكية صدر في عام ١٩٢٧ في مجلة "العصور": "

إذا نظرنا في جنبات الدنيا الأربعة، ورأينا ذلك الاجماع الكامل الذي يشمل جميع الذين يفكرون

في مستقبل الأمم، ويتخذون من المذاهب الاشتراكية موضعاً لتفكيرهم وعميق تأملهم، أدركنا طرفاً من التأثير الشامل الذي خلفه ذبوع تلك المذاهب، وضربها في أصول المنظمات القائمة ضرب عملاق قوي الأصلاب. واستطعنا ان نستشف على وجه من الدقة، بالغ أثرها، وشمول فعلها الثابت، في السياسات العالمية القائمة من حولنا. وبه تتجاوب انحاء كرة الأرض. لهذا نعتقد أن عناية القادرين على بحث هذه الظاهرة الاجتماعية لجلى، من جميع وجوها التحليلية والانتقادية، لا يصبح فرض كفاية يستوي فيه وجوب الفعل أو تركه. وإنما هو فرض عين على كل منهم. لأن الأمم الشرقية انبرت لها رياح شديدة عاتية، أخذت تكتسح خيالاتها القديمة، وتعمل في أصول تقاليدها، التي درجت عليها الآلاف من السنين. فهي في طور انتقال، اتصف بكل ما تتصف به أطوار الانتقال من محاسن. كما ان فيه كل ما اعتور تلك الأطوار من النقائص والحماقات".

ويقول في العلاقة بين العلم والدين في مقال تحليلي يطرح فيه الإشكاليات على حقيقتها: "... ولو صح أن بين الدين والعلم عداً وصراعاً، فكيف أن هذا الصراع الذي ظل قائماً بينهما خمسة وعشرين قرناً من الزمان لم ينته بأن يصرع أحدهما الآخر؟ وهل خمسة وعشرين قرناً غير كافية لأن تنتهي المعركة وتتصر فريقاً؟ الحقيقة أن الصراع ليس قائماً بين العلم والدين. والحقيقة أن الدين والعلم كل منهما يستمد من ناحية من النواحي تكوين الفكر في الإنسان. لهذا ظل الدين باقياً وظل العلم ثابتاً. لأن كلاً منهما مظهر من مظاهر الفكر الإنساني. لكن إذا اعتقدنا هذا فبأي شيء نعلل ذلك التاريخ الطويل الذي حاول فيه رؤساء الدين أن يخفتوا صوت العلم. وبأي شيء سوف نعلل ذلك الصراع الذي سيحاول فيه رجال العلم أن يخفتوا صوت الدين في المستقبل".

ويعصب عليّ تلخيص الأفكار التي وردت في سلسلة من مقالات نشرها اسماعيل مظهر في مجلة "الرسالة" لصاحبها أحمد حسن الزيات. فهي متعددة وغنية بالأفكار التي أعطت لمظهر قيمته كمفكر طليعي نهضوي رائد. وقد نشرت السلسلة الأولى منها تحت عنوان "تأملات في الأدب والحياة"، والسلسلة الثانية تحت عنوان "التعليم والحالة الاجتماعية في مصر". فضلاً عن مقالات أخرى له، الأول منها تحت عنوان "وحي المعرفة والثاني عرض فيها رأيه في النقد الأدبي.

إسماعيل مظهر هو كنز فكري يستحق أن تستعاد أفكاره. فهي مدرسة قائمة بذاتها.